سلسلة التسهيل لطالب علم التأصيل.. (٢)

شَرْحُ

القَوَاعِدِ الأَرْبَعَةِ

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

رحمه اللَّه

لشيخ

شرح فضيلة الشيخ

صَالِح بنُ فَوْزَان الفَوْزَان

www.ajurry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فرسالة **القواعد الأربع** للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله تعالى- من أنفع المصنفات في العقيدة، فهي في مضمونها تتعلق بتصحيح الاعتقاد ومعرفة التوحيد ومعرفة الشرك؛ لذلك اهتم أهل العلم بدراستها وتدريسها لطلبة العلم، حتى وُجدت لها شروحاتٌ عدّة، منها هذا الشرح المبارك لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان –حفظه الله-.

وهو شرح موجز سهل العبارة، بيّن فيه –حفظه الله- أهم مسائل هذه الرسالة النافعة وأوضح في مقدمة شرحه أهميتها وضرر الإخلال بمعرفتها، وأن معرفتها ألزم على المرء مِن معرفة أحكام الصلاة والزكاة والعبادات وسائر الأمور الدينيّة.

وكان عملنا في الكتاب:

١- خدمة الشرح المفرَّغ الموجود على الشبكة؛ من حيث مقابلته بالصوتي وتعديل الأخطاء والنقص الوارد فيه، وتنسيقه، ووضع الآيات بالرسم العثماني.

٢- تخريج الأحاديث الواردة.

٣- إضافة ترجمة لفضيلة الشيخ صالح الفوزان، حفظه الله.

هذا ونسأل الله –عز وجل- أن يتقبل منا بقبول حسن وأن ينفع بهذا العمل جميع المسلمين.. آمين.

–ترجمة الشارح–

نسبه :

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبد الله، من آل فوزان من أهل الشماسية، الوداعين من قبيلة الدواسر.

نشأته ودراسته:

ولد عام ١٣٥٤هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربى في أسرته، وتعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد إمام مسجد البلد، وكان قارئا متقنا وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولى القضاء أخيرا في بلدة ضرية في منطقة القصيم.

أعماله الوظيفية :

بعد تخرجه في كلية الشريعة عين مدرسا في المعهد العلمي في الرياض، ثم نُقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نُقل للتدريس في الدراسات العليا بكلية أصول الدين، ثم في المعهد العالي للقضاء، ثم عين مديرا للمعهد العالي للقضاء، ثم عاد للتدريس فيه بعد انتهاء مدة الإدارة، ثم نُقل عضوا في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال على رأس العمل.

أعماله الأخرى :

فضيلة الشيخ عضو في هيئة كبار العلماء، وعضو في المجمع الفقهي بمكة المكرمة التابع للرابطة، وعضو في لجنة الإشراف على الدعاة في الحج، إلى جانب عمله عضوا في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وإمام وخطيب ومدرس في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود في الملز، ويشارك في الإجابة في برنامج (نور على الدرب) في الإذاعة، كما أن لفضيلته مشاركات منتظمة في المجلات العلمية

على هيئة بحوث ودراسات ورسائل وفتاوى، جمع وطبع بعضها، كما أن فضيلته يشرف على الكثير من الرسائل العلمية في درجتي الماجستير والدكتوراه، وتتلمذ على يديه العديد من طلبة العلم الذين يرتادون مجالسه ودروسه العلمية المستمرة.

مشايخه :

تتلمذ فضيلة الشيخ على أيدي عدد من العلماء والفقهاء البارزين، ومن أشهرهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وسماحة الشيخ عبد الله بن حميد، حيث كان يحضر دروسه في جامع بريدة، وفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وفضيلة الشيخ صالح بن عبد الرحمن السكيتي، وفضيلة الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، وفضيلة الشيخ محمد بن سبيل، وفضيلة الشيخ عبد الله بن صالح الخليفي، وفضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد العبد المحسن، وفضيلة الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي، والشيخ صالح العلي الناصر. وتتلمذ على غيرهم من شيوخ الأزهر المنتدبين في الحديث والتفسير واللغة العربية.

مؤلفاته :

لفضيلة الشيخ مؤلفات كثيرة، من أبرزها:

١- (التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية) في المواريث، وهو رسالته في الماجستير، مجلد.

٢- (أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية) وهو رسالته في الدكتوراه، مجلد.

٥- (شرح كتاب التوحيد- للشيخ محمد بن عبد الوهاب)، شرح مدرسي.

٧- (الملخص الفقهي) مجلدان.

٨- (إتحاف أهل الإيمان بدروس شهر رمضان).

١١- (كتاب التوحيد) جزءان مقرران في المرحلة الثانوية بوزارة المعارف.

١٣- (البدع والمحدثات وما لا أصل له).

١٧- (بحوث فقهية في قضايا عصرية).

٢٢ - (إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد).

٢٥ - (الإيمان بالملائكة وأثره في حياة الأمة).

٢٧ - (من مشكلات الشباب).

٣٠ - (تدبر القرآن).

٣٣ - (دور المرأة في تربية الأسرة).

وغيرها كثير من الكتب والبحوث والرسائل العلمية، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو في طريقه للطبع.

فبارك الله في شيخنا وفي علمه وعمله وأطال عمره في طاعته بعفو وعافية.. آمين.

–مقدمة الشارح–

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه هي ((القواعد الأربع)) التي ألّفها شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب، رحمه الله. وهي رسالة مستقلّة، ولكنها تُطبَع مع ((ثلاثة الأصول)) من أجل الحاجة إليها لتكون في متناوَل أيدي طلبة العلم.

والقواعد: جمع قاعدة، والقاعدة: هي الأصل الذي يتفرّع عنه مسائلُ كثيرة، أو فروعٌ كثيرة.

ومضمون هذه القواعد الأربع التي ذكرها الشيخ –رحمه الله–:

معرفة التوحيد، ومعرفة الشرك، ما هو الضابط في التوحيد أو القاعدة في التوحيد؟ وما هي القاعدة في الشرك أو الضابط في الشرك؟

لأنّ كثيرًا من الناس يتخبّطون في هذين الأمرين، يتخبّطون في معنى التوحيد ما هو تعريفه؟ ويتخبّطون في معنى الشرك، كلٌّ يفسّره على حسَب هواه، والتوحيد أيضا كلٌّ يفسِّره على حسب هواه وميوله.

ولكن الواجب أنّنا نرجع في تقعيدنا إلى الكتاب والسنّة، ليكون هذا التقعيد تقعيدًا صحيحًا سليمًا مأخوذًا من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم لاسيّما في هذين الأمرين العظيمين؛ التوحيد والشرك.

والشيخ –رحمه الله– لم يذكر هذه القواعد من عنده أو مِنْ فِكْرِه، كما يفعل ذلك كثيرٌ من المتخبِّطين، وإنما أخذ هذه القواعد من كتاب الله ومن سنّة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسيرته.

فإذا عرفت هذه القواعد وفهمتها سَهُلَ عليك بعد ذلك معرفة التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ومعرفة الشرك الذي حذّر الله –تعالى– منه وبيّن خطره وضرره في الدنيا والآخرة.

هذا أمرٌ مهمّ جدًّا، هذا أَلْزَمُ عليك من معرفة أحكام الصلاة والزكاة والعبادات وسائر أمور الدين؛ هذا هو الأمر الأول والأساس؛ لأنّ الصلاة والزكاة والحج وغيرها من العبادات لا تصحّ إذا لم تُبْنَ على أصل العقيدة الصحيحة، العبادات لا تصح إلا إذا بُنِيَت على أصلٍ صحيح وهو التوحيد الخالص لله –عزّ وجل–.

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ(١)، . . . . .

(١) قدّم –رحمه الله– لهذه القواعد الأربع بمقدِّمة عظيمة فيها الدعاء لطلبة العلم والتنبيه على ما سيقوله، يقول: (أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يتولاّك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مبارَكـًا أينما كنت، وأن يجعلك ممّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنّ هذه الثلاث هي عنوان السعادة).

هذه مقدّمة عظيمة، فيها دعاءٌ من الشيخ –رحمه الله– لكلّ طالبِ عِلْمٍ يتعلّم عقيدته يريد بذلك الحق، ويريد بذلك تجنُّب الضلال والشرك، فإنه حَرِيٌّ بهذا الدعاء؛ أن يتولاك في الدنيا والآخرة.

إذا تولاك الله في الدنيا والآخرة فإنه لا سبيل إلى المكاره أن تصل إليك، لا في دينك ولا في دنياك ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[سورة البقرة، الآية ٢٥٧]، فإذا تولاّك الله أخرجك من الظّلمات، ظلمات الشرك والكفر والشُّكوك والإلحاد إلى نور الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾[سورة إبراهيم، الآية ٧]، وهذا مثل قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[سورة البقرة، الآية ٢٥٧] يهدونهم من النور إلى الظلمات.

فإذا تولاّك الله برعايته وتوفيقه وهدايته في الدنيا وفي الآخرة، فإنّك تسعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا.

في الدنيا يتولاّك بالهداية والتوفيق والسير على المنهج السليم.

وفي الآخرة يتولاّك بأن يُدخلك جنّته خالدًا مخلَّدًا فيها لا خوف ولا مرض ولا شقاء ولا كبَر ولا مكارِه. هذه وَلاية الله لعبده المؤمن.

وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ(١)، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ(٢)، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ(٣)،

(١) إذا جعلك الله مباركـــًا أينما كنت فهذا هو غاية المطالِب، يجعل الله البركة في عمرك، ويجعل البركة في رزقك، ويجعل البركة في علمك، ويجعل البركة في عملك، ويجعل البركة في ذريّتك، أينما كنت تصاحبك البركة أينما توجّهت، هذا خيرٌ عظيم، فضلٌ من الله –سبحانه وتعالى–.

(٢) ممن إذا أُنعِم عليه شكر النعمة، خلاف الذي إذا أُعطي كفر النعمة وبطِرها، فإنّ كثيرًا من الناس إذا أُعطوا النعمة كفَروها وأنكروها وصرفوها في غير طاعة الله –عزّ وجل–، فصارتْ سببـــًا لشقاوته، أما مَن يشكُر فإنّ الله –تعالى– يزيده: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[سورة إبراهيم:٧]، الله –جلّ وعلا– يزيد الشّاكرين من فضله وإحسانه.

فإذا أردّت المزيد من النعم فاشكر الله –عزّ وجل–، وإذا أردتّ زوال النعم فاكفُرها.

(ممن إذا أعطي شكر) فلا يبطر ولا يتكبر ولا يطغى بنعم الله عليه.

(٣) الله –جلّ وعلا– يبتلي العباد، يبتليهم بالمصائب، يبتليهم بالمكارِه، يبتليهم بالأعداء من الكفّار والمنافقين، فيحتاجون إلى الصبر وعدم اليأس وعدم القنوط من رحمة الله، والثبات، ويَثبُتون على دينهم، ولا يتزحزحون مع الفِتَن، أو يستسلمون للفتن، بل يَثبُتون على دينهم، ويصبرون على ما يقاسون من الأتعاب في سبيلها، بخلاف الذي إذا ابتُلي جَزِع وتسخّط وقنِط من رحمة الله –عزّ وجل– فهذا يُزاد ابتلاء إلى ابتلاء ومصائب إلى مصائب ((إنّ الله إذا أحبّ قومـــًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فعليه السخط))[١]، وأعظم الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل[٢].

ابتُلي الرسل، وابتُلي الصدِّيقون، وابتُلي الشهداء، وابتُلي عباد الله المؤمنون، لكنهم صبروا.

---

[١] الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء. حسنه الألباني في صحيح الجامع.

[٢] الترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، وأحمد. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

أما المنافِق ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[سورة الحج، الآية ١١] أي: طرف ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[سورة الحج، الآية ١١]، الدنيا ليست دائمـــًا نعيمـــًا وتَرَفـــًا ومَلذّات وسُرورًا ونصرًا، ليست دائمـــًا هكذا، الله يداوِلها بين العباد.

الصحابة أفضل الأمة ماذا جرى عليهم من الابتلاء والامتحان؟ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[سورة آل عمران، الآية ١٤٠]، فلْيُوَطِّنِ العبدُ نفسه أنه إذا ابتُلي فإنّ هذا ليس خاصـــًّا به، فهذا سبق لأولياء الله، فيوطِّن نفسه ويصبِر وينتظر الفرج من الله –سبحانه وتعالى –، والعاقِبة للمتّقين.

وَإِذَا أَذْنبَ اسْتَغْفَرَ.

(**وإذا أذنب استغفر**) أمّا الذي إذا أذنب لا يستغفر ويستمر ويستزيد من الذنوب فهذا شقي –والعياذ بالله–، لكن العبد المؤمن كلّما صدر منه ذنب بادر بالتوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[سورة آل عمران، الآية ١٣٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾[سورة النساء، الآية ١٧]، والجَهالة هنا ليس معناها عدم العلم؛ لأن الجاهل لا يؤاخَذ، لكن الجهالة هنا هي ضدّ الحِلْم والاتزان. كلّ مَنْ عصى الله فهو جاهل بمعنى أنه ناقص الحِلْم وناقص العقليّة والإنسانيّة، وقد يكون عالمـــاً لكنه جاهل من ناحية أخرى من ناحية أنه ليس عنده حِلم ولا ثبات في الأمور، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ يعني: كلّما أذنبوا استغفروا.

ما هناك أحد معصوم من الذنوب، إلا الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– ولكن الحمد لله أنّ الله فتح باب التوبة، فعلى العبد إذا أذنب أن يُبادِر بالتوبة، لكن إذا لم يتب و لم يستغفر فهذه علامةُ الشقاء.

أو يقنط من رحمة الله ويأتيه الشيطان ويقول له: أنت ليس لك توبة، أنت تعمل هذه الذنوب وتريد توبة؟ يأتيه الشيطان ويقول له كذا، يقنِّطه من رحمة الله ويقول له ما لك توبة، ما تستحي تعمل هذه الأشياء وتتوب تستغفر؟! يقول له كذا، مهما بلغ الذنب حتى الشرك والكفر إذا تاب العبد منه تاب الله عليه وغفر ذنوبه، (إذا أذنب استغفر) يعني بادَر بالتوبة ولا يؤجل، بعض الناس يقول: بعدين، بعدين التوبة، إذا كبرت، إذا رجعت إلى بلدي، إلى كذا وكذا أتوب، لا، ما يجوز، يمكن تذهب قبل الأجل الذي ضربْتَه للتوبة، الأمر بيد الله –عز وجل–.

فتأجيل التوبة أمر لا يجوز، لا ترك التوبة والقنوط من رحمة الله ولا تأجيل التوبة، حتى ولا إلى بعد ساعات؛ لأنك لا تدري تدرك الساعات أو ما تدركها، فبادر في لحظتك بالتوبة إلى الله والاستغفار.

فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ (١).

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ(٢): أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) [سورة الذاريات، الآية ٥٦].

---

(١) هذه الأمور الثلاث: إذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، هي عنوان السعادة، مَن وُفِّق لها نال السعادة، ومن حُرِم منها –أو من بعضها– فإنّه شقيّ.

(٢) هذا دعاء من الشيخ –رحمه الله–، وهكذا ينبغي للمعلم أن يدعو للمتعلم. وطاعة الله تكون امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

(٣) (أن الحنيفية ملة إبراهيم) الله –جلّ وعلا– أمر نبيّنا باتّباع ملّة إبراهيم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[سورة النحل، الآية ١٢٣].

الحنيفيّة: ملة الحنيف وهو إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–، والحنيف هو: المقبِل على الله المعرِض عمّا سواه، هذا هو الحنيف، المقبِل على الله بقلبه وأعماله ونيّاته ومقاصِده كلّها لله، المعرِض عمّا سوى الله –جل وعلا–، هذا هو الحنيف، والحنيفية هي ملة الحنيف ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[سورة النحل: ١٢٠]. الله أمرنا باتّباع ملّة إبراهيم: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾[سورة الحج، الآية ٧٨].

ما هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أُمرْنا باتباعه؟ هذا الذي يريد الشيخ أن يبيّنه لك: أن تعبد الله مخلصـــًا له الدين، هذه الحنيفيّة ملة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصا له الدين، ما قال: (أن تعبد الله) فقط، بل قال: (مخلصـــًا له الدين) يعني: وتجتنب الشرك؛ لأنّ العبادة إذا خالطها الشرك بطلتْ، فسدت، فلا تكون عبادة إلاّ إذا كانت سالَمَةً من الشرك الأكبر والأصغر؛ كما قال –تعالى–: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ

ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البيِّنة، الآية ٥] حنفاء: جمع حنيف، وهو : المخلِص لله –عزّ وجل–.

وهذه العبادة أَمَرَ الله بها جميع الخلْق؛ كما قال –تعالى–: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[سورة الذاريات، الآية ٥٦]، ومعنى ﴿يَعۡبُدُونِ﴾: يُفْرِدوني بالعبادة. الحكمة من خلق الخلق: أنهم يعبدون الله –عزّ وجل– مخلِصين له الدين، منهم من امتثل ومنهم من لم يمتثل، لكن الحكمة من خلقهم هي هذه، فالذي يَعبُد غيرَ الله مخالِف للحكمة من خلق الخلق، ومخالِف للأمر وهو الشرع.

وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده، كلّ الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم فإنهم من ذريّته، ولهذا قال الله– جلّ وعلا–: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾[سورة العنكبوت، الآية ٢٧]، كلهم من بني إسرائيل حفيد إبراهيم –عليه السلام–، ومن ذرية إسماعيل وهو محمد صلى الله عليه وسلم. فكلّ الأنبياء من أبناء إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–، من ذريته، تكريمـــاً له.

وجعله الله إمامـــاً للنّاس –يعني : قدوة–: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾[سورة البقرة، الآية ١٢٤] يعني : قدوة، ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[سورة النحل، الآية ١٢٠] يعني: إمامـــاً يُقتدى به.

وبذلك أمـــر الله جميع الخلق كما قال –تعالى–: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[سورة الذاريات، الآية ٥٦].

فإبراهيم دعا الناس إلى عبادة الله –عزّ وجل– كغيره من النبيّين. كلّ الأنبياء دعوُا الناس إلى عبادة الله وترْك عبادة ما سواه، هذه دعوة الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[سورة النحل، الآية ٣٥]. .

وأما الشرائع التي هي الأوامر والنواهي والحلال والحرام فهذه تختلف باختلاف الأمم حسب الحاجات، يشرع الله الشريعة ثم ينسخها بشريعة أخرى، إلى أنْ جاءت شريعة الإسلام فنسختْ جميع الشرائع وبقِيَتْ هي إلى أنْ تقوم السّاعة.

أما أصل دين الأنبياء –وهو التوحيد– فهو لم يُنسَخ أبدا ولا يُنسخ، دينهم واحد وهو دين الإسلام بمعنى: الإخلاص لله بالتوحيد. أما الشرائع قد تختلف، تُنسخ، لكن التوحيد والعقيدة هذه واحدة من آدم إلى آخر الأنبياء، كلهم يدعون إلى التوحيد وإلى عبادة الله.

وعبادة الله: طاعته فيما أمر في كلّ وقت بحسبه.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ . . . .

يعني إذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، يعني من هذه الآية، إذا عرفت من هذه الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[سورة الذاريات، الآية ٥٦] –وأنت من الإنس، داخلٌ في هذه الآية– عرفت أن الله ما خلقك عبثـــًا، أو خلقك لتأكل وتشرب فقط، تعيش في هذه الدنيا تَسْرَحْ وتَمْرَحْ، لم يخلقك لهذا، خلقك الله لعبادته، وإنما سخّر لك هذه الموجودات من أجل أن تستعين بها على عبادته، لأنّك لا تستطيع أن تعيش إلا بهذه الأشياء، ولا تتوصّل إلى عبادة الله إلا بهذه الأشياء، سخّرها الله لك لأجل أنْ تعبده، ليس من أجل أنك تفرح بها وتسرح وتَمْرَحْ وتأكل وتشرب إذا اشتهيت، هذا شأن البهائم، أمّا الآدميّون فالله –جلّ وعلا– خلقهم لغايةٍ عظيمة وحكمة عظيمة وهي العبادة، قال –تعالى– ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾[سورة الذاريات، الآية٥٦–٥٧] الله ما خلقك لتكتسب له، أن تحترف وتجمع له مالًا، كما يفعل بنو آدم أنهم يجعلون عُمّالًا يجمعون لهم المكاسب، لا، الله غنيّ عن هذا، الله غنيّ عن العالَمين ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ الله –جلّ وعلا– يُطعِم ولا يُطعَم، غنيّ عن الطعام، وغني –جلّ وعلا– بذاته، وليس هو أيضًا في حاجة إلى عبادتك، لو كفرت ما نقصتَ ملك الله، ولكن أنت الذي بحاجة إليه، أنت الذي بحاجة إلى العبادة.

فمن رحمته أنه أمرك بعبادته من أجل مصلحتك، لأنّك إذا عبدتّه فإنه –سبحانه وتعالى– يُكرِمُك بالجزاء والثواب. فالعبادة سببٌ لإكرام الله لك في الدنيا والآخرة، فمَن الذي يستفيد من العبادة؟ هو العابِد نفسه، أما الله –جلّ وعلا– فإنّه غنيّ عن خلقه ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ. . . . .

إذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فمتى تكون العبادة صحيحة يرضاها الله –سبحانه وتعالى– ؟ إذا توفّر فيها شرطان، تنبهوا لهذا، شرطان، إذا اختلّ شرطٌ من الشرطين بطلت:

الشرط الأوّل: أنْ تكون خالِصة لوجه الله، ليس فيها شرك، خالصة من الشرك، فإنْ خالطها شركٌ بطلتْ.

مثْل الطهارة، الوضوء، إذا تطهرت توضأت ثم أحدثت؛ بطلت الطهارة. كذلك إذا عبدت الله ثم أشركت به بطلت عبادتك. هذا الشرط الأوّل: الإخلاص لله، وهو السلامة من الشرك.

الشرط الثاني: المتابَعة للرسول صلى الله عليه وسلم، فأيّ عبادة لم يأتِ بها الرسول فإنّها باطلة ومردودة، لأنّها بدعة وخُرافة، قال صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ عمِل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدّ))[1]، وفي رواية : ((مَنْ أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ))[2]، فلا بدّ أنْ تكون العبادة موافِقة لِمَا جاء به الرّسول صلى الله عليه وسلم، لا باستحسانات الناس ونيّاتاهم ومقاصدهم، ما دام أنها لم يدلّ عليها دليل من الشرع فهي بدعة، ولا تنفع صاحبها بل تضرّه؛ لأنها معصية وإنْ زعم أنه يتقرّب بها إلى الله –عزّ وجل– .

فلا بد في العبادة من هذين الشرطين: الإخلاص، والمتابعة للرّسول صلى الله عليه وسلم ؛ حتى تكون عبادةً صحيحة نافعة لصاحبها، فإنْ دخلها شركٌ بطلتْ. وإذا صارت مبتَدَعة ليس عليها دليل فهي باطلة أيضـــًا.

---

[1]) مسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحاكم الباطلة ورد محدثات الامور.

[2]) مسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحاكم الباطلة ورد محدثات الامور.

بدون هذين الشرطين لا فائدة من العبادة؛ لأنّها على غير ما شرع الله –سبحانه وتعالى–، والله لا يقبل إلا ما شَرع في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فليس هناك أحد من الخلق يجب اتّباعه إلاّ الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما ما عدا الرسول فإنه يُتْبَع ويُطاع إذا اتّبع الرسول، إذا اتّبع الرسول فإنه يُطاع، أما إذا خالف الرّسول فلا طاعة، يقول الله –تعالى– : ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[سورة النساء، الآية ٥٩]، وأولوا الأمر هم: الأمراء والعلماء، فإذا أطاعوا الله وجبتْ طاعتهم واتّباعهم، أما إذا خالفوا أمر الله فإنها لا تجوز طاعتهم ولا اتّباعُهم فيما خالفوا فيه؛ لأنّه ليس هناك أحدٌ يُطاع استقلالاً من الخلق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما عداه فإنّه يُطاع ويُتّبَع إذا أطاع الرّسول صلى الله عليه وسلم واتّبَع الرسول، هذه هي العبادة الصحيحة.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، الآية ١١٦]. وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

(فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ) صار أهم ما عليك معرفة الشرك، ما دام عرفتَ التوحيد وهو: إفراد الله بالعبادة، يجب أن تعرف ما هو الشرك، لأنّ الذي لا يعرف الشيء يقع فيه. فلا بدّ أنك تعرف أنواع الشرك من أجل أن تتجنّبها، لأنّ الله حذّر من الشرك وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء، الآية ١١٦]، فهذا الشرك الذي هذا خطرُه، وهو أنه يَحْرِمُ من الجنّة ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾[سورة المائدة، الآية ٧٢]، ويَحْرِمُ من المغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ إذن هذا خطرٌ عظيم، يجب عليك أن تعرفه قبل أيّ خطر؛ ما هو الشرك؟ لأنّ الشرك ضلّت فيه أفهامٌ وعُقولٌ. فلابد أن نعرف ما هو الشرك من الكتاب والسنة.

الله ما حذّر من شيء إلا وبيّنه، وما أمَر بشيء إلا ويُبيّنه للناس، فهو لن يحذِّر من الشرك ويتركه مجمَلًا، بل بيّنه في القرآن العظيم وبيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم في السنّة بيانـــًا شافيـــًا.

فإذا أردنا أن نعرف ما هو الشرك نرجع إلى الكتاب والسنة حتى نعرف الشرك، ولا نرجع إلى قول فلان وعلان، إلا إذا وافق الكتاب والسنة، إذا وافق الكتاب والسنة فعلى الرأس والعين.

يعني كيف تعرف التوحيد والشرك؟ إذا عرفتَ هذه القواعد الأربع التي نقلها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذا عرفتها تعرف الشرك.

الْقَاعِدَةُ الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ –تَعَالَى– هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس، الآية ٣١].

القاعدة الأولى: أن تعرف أن الكفّار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مقرِّين بتوحيد الرّبوبيّة، ومع ذلك إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام، ولم يحرِّم دماءهم ولا أموالهم.

فدلّ على أنّ التوحيد ليس هو الإقرار بالربوبيّة فقط، وأنّ الشرك ليس هو الشرك في الربوبيّة فقط، بل ليس هناك أحدٌ أشرك في الربوبيّة إلا شواذّ من الخلق، وإلاّ كلُّ الأمم تُقِرّ بتوحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية هو: الإقرار بأنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبّر، أو بعبارة أخصر: توحيد الربوبية هو: إفراد الله –تعالى– بأفعاله –سبحانه وتعالى– .

لا أحد من الخلق ادّعى أنّ هناك أحدًا يخلُق مع الله –تعالى–، أو يرزق مع الله، أو يحيي، أو يُميت، المشركون مقرّون بأنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبّر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[سورة لقمان، الآية ٢٥]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[سورة المؤمنون، الآية ٨٦]، اقرءوا الآيات من آخر سورة المؤمنون تجدون أنّ المشركين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبيّة، وكذلك في سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[سورة يونس، الآية ٣١]، فهم مقرّون بهذا .

فليس التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبيّة كما يقول ذلك علماء الكلام والنُظّار في عقائدهم، فإنّهم يقرّرون أنّ التوحيد هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فيقولون: (واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في صفاته لا شبيه له، واحدٌ في أفعاله لا شريك له) ما تعدى توحيد الربوبية، هذا هو توحيد الربوبيّة، ارجعوا إلى أيّ كتاب من كتب علماء الكلام تجدوهم لا يخرجون عن توحيد الربوبيّة، وهذا ليس هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل، والإقرار بهذا وحده لا ينفع صاحبه، لأنّ هذا أقرّ به المشركون أبو جهل وأبو لهب وصناديد الكَفَرة، و لم يُخرجهم من الكفر، و لم يُدخلهم في الإسلام، فهذا غلطٌ عظيم، من اعتقد هذا الاعتقاد ما زاد على اعتقاد أبي جهل وأبي لهب، أبدا، فالذي يدندنون عليه هم وبعض المثقّفين الآن الذي يدندنون عليه هو تقرير توحيد الربوبية فقط، ولا يتطرّقون إلى توحيد الألوهيّة، وهذا غلطٌ عظيم في مسمّى التوحيد .

وأما الشرك فيقولون: (هو أن تعتقد أنّ أحدًا يخلُق مع الله أو يرزق مع الله)، نقول: هذا ما قاله أبو جهل ولا أبو لهب، ما قالوا أن أحدًا يخلُق مع الله ويرزُق مع الله، هم مقرّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت.

فهؤلاء يفسِّرون التوحيد والشرك بهذا الشيء، وهذا شيءٌ لا يُسمِن ولا يغني من جوع.

عرفتم الآن الضلال أين؟ هذا عليه أمّة من الناس الآن، يدرِّسونه ويدرُسونه ويدعون إليه، مع أنه ليس هذا هو التوحيد.

الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة الزمر، الآية ٣].

القاعدة الثانية: أن المشركين الذين سمّاهم الله مشركين وحكم عليهم بالخُلود في النار، لم يشركوا في توحيد الربوبيّة وإنما أشركوا في توحيد الألوهية، فهم لا يقولون إنّ آلهتهم تخلُق وترزُق مع الله، وأنهم ينفعون أو يضرّون أو يدبّرون مع الله، وإنما اتخذناهم شفعاء، نعلم أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ولكن اتخذنا هؤلاء شفعاء وسائط بيننا وبين الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[سورة يونس، الآية ١٨]، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هم معترفون بهذا؛ إنهم لا ينفعون ولا يضرّون، وإنما اتّخذوهم شفعاء، يعني: وُسطاء عند الله في قضاء حوائجهم، يذبحون لهم، وينذُرون لهم، ويركعون لهم، لا لأنّهم يخلقون أو يرزقون أو ينفعون أو يضرّون في اعتقادهم، وإنما لأنهم يتوسّطون لهم عند الله، ويشفعون عند الله، هذه عقيدة المشركين.

أنت لمّا تناقش قبوريـــًا الآن من القبوريّين يقول هذه المقالة سواءً بسواء، يقول: أنا أعرف أنّ هذا الوليّ أو هذا الرجل الصالح عاجز ليس هو الذي يخلق ويرزق أوينفع أويضر لكن هو رجلٌ صالح وأُريد منه الشفاعة لي عند الله ،ويريد به الوَساطة عند الله، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[سورة يونس، الآية ١٨] .

قال: (لطلب القربة والشفاعة)، الشفاعة ما هي؟ الشفاعة فيها حقّ وفيها باطل، **الشفاعة التي فيها حقّ وصحيحة هي ما توفّر فيها شرْطان:**

الشرط الأوّل: أن تكون بإذن الله .

والشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، مِن عُصاة الموحدين.

فإنِ اختلّ شرطٌ من الشرطين فالشفاعة باطلة، قال –تعالى–: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، هذا الشرط الاول.

الشرط الثاني: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[سورة الأنبياء، الآية ٢٨]، وهم عُصاة الموحّدين.

أما الكفّار والمشركون فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[سورة غافر، الآية ١٨]، فهؤلاء سمعوا بالشفاعة ولا عرفوا معناها، وراحوا يطلبونها من هؤلاء بدون إذن الله –عزّ وجل –، بل طلبوها لمن هو مشرِكٌ بالله لا تنفعه شفاعة الشافعين، فهؤلاء يجهلون معنى الشفاعة الحقّة والشفاعة الباطلة.

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس، الآية ١٨]. وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

–فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية٢٥٤].

–وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٥].

قوله: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: يعني بغير إذن الله –سبحانه وتعالى–.

عرفنا القاعدة الثانية وهي أن المشركين الأوّلين الذين نزل القرآن في تكفيرهم ووصفهم بالشرك، ما عبدوا الأصنام والأنداد والأشجار والأحجار والملائكة وعيسى وعزير وغيرهم، ما عبدوهم لأنهم يعتقدون أنهم يخلقون ويرزقون مع الله، وإنما اتخذوهم شفعاء. فنقول: الشفاعة لها شروط ولها قُيود، ليست مطلَقة، الشفاعة لها شرطان:

هناك شفاعة نفاها الله –جلّ وعلا–، وهي الشفاعة بغير إذنه –سبحانه وتعالى–، فلا أحد يشفع عند الله إلاّ بإذنه.

وأفضل الخلق وخاتم النبيّين محمد صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يشفع لأهل الموقف يوم القيامة يخرّ ساجدًا بين يدي ربّه ويدعوه ويحمدُه ويُثني عليه، ولا يزال ساجدًا حتى يُقال له: ((ارفع رأسك، وقل تُسْمَعْ، واشفع تُشَفَّعْ))[1]، فلا يشفع إلا بعد الإذن.

الذي يطلب الشفاعة من الأموات يتقرب إليهم، يقول هذا يشفع لي عند الله، هذه شفاعة شركية، وأيضًا فاعلها هذا مشرك، والمشرك لا تنفعه شفاعة، المشرك الذي يقدِّم القرابين للقبور والنذور للقبور ويطوف بها هذا مشرك لا تنفعه الشفاعة، المشرك لا تنفعه الشفاعة قط، الشفاعة للموحِّدين فقط.

[1]) مسلم، كتاب الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة مترلة فيها.

الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ .....

القاعدة الثالثة: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بُعث إلى أُناسٍ متفرقين في عباداتهم من المشركين، منهم مَنْ يعبُد الملائكة، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم مَن يعبد الأصنام والأحجار والأشجار، ومنهم مَن يعبد الأولياء والصالحين. وهذا من قبح الشرك؛ أنّ أصحابه لا يجتمعون على شيء واحد، بخلاف الموحّدين فإنّ معبودهم واحد –سبحانه وتعالى–: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾[سورة يوسف، الآية ٣٩–٤٠].

فمن سلبيّات الشرك وأباطيله أنّ أهله متفرّقون في عباداتهم لا يجمعهم ضابط، لأنّهم لا يسيرون على أصل، وإنّما يسيرون على أهوائهم ودعايات المضلّلين، فتكثُر تفرّقاتهم، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الزمر، الآية ٢٩]، فالذي يعبد الله وحده مثل المملوك الذي يعبده شخص واحد يرتاح معه، يعرف مقاصده ويعرف مطالبه ويرتاح معه، لكن المشرك مثل الذي له عدّة مالكين، ما يدري مَنْ يُرضي منهم، كلّ واحد له هوى، وكلّ واحد له طلب، وكل واحد له رغبة، كل واحد يريده أن يأتي عنده، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يعني: يملكه عدّة أشخاص، لا يدري مَن يُرضي منهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مالكه شخص واحد، هذا يرتاح معه، هذا مثل ضربه الله للمشرك وللموحّد.

فهؤلاء متفرّقون في عباداتهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قاتلهم و لم يفرِّق بينهم، قاتل الوثنين، وقاتل اليهود والنصارى، وقاتل المجوس، قاتل جميع المشركين، وقاتل الذين يعبدون الملائكة، والذين يعبدون الأولياء الصالحين، لم يفرِّق بينهم.

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون: لا ما يستوي، الذي يعبد الصنم ليس مثل الذي يعبد رجلاً صالحـــًا وملكـــًا من الملائكة، لأنّ هؤلاء يعبدون أحجارًا وأشجارًا، ويعبدون جمادات، أما الذي يعبد رجلاً صالحـــًا ووليـــًّا من أولياء الله هذا ليس مثل ذاك، فنقول: الرسول لم يفرّق بينهم، اعتبرهم مشركين كلّهم، واستحلّ دماءهم وأموالهم، و لم يفرِّق بينهم.

الذين يعبدون المسيح، المسيح رسول الله أليس كذلك؟ النصارى يعبدون المسيح، ومع هذا قاتلهم. واليهود يعبدون عُزيرًا، ويعبدون فلان وفلان من أنبيائهم، قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يفرِّق بينهم.

فالشرك لا تفريق فيه بين مَنْ يعبُد رجلاً صالحـــًا أو يعبُد صنمـــًا أو حجرًا أو شجرًا، لا يوجد تفريق، الشرك هو عبادة غير الله كائنـــًا مَنْ كان، ولهذا يقول: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[سورة النساء، الآية ٣٦]، كلمة ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النهي تعمّ كلّ شيء، تعمّ كل مَنْ أُشرك مع الله –عز وجل–من الملائكة والرسل والصالحين والأولياء، والأحجار والأشجار .. إلخ، لم يفرق بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذا فيه ردٌّ على من يقول: الشرك عبادة الأصنام فقط أما عبادة الأولياء والصالحين هذه ليست شركًا، يقولونها الآن، يقولون: نحن نتقرب إلى أناسٍ صالحين عباد مقربين من عباد الله ملائكة أو أنبياء أو عبّاد صالحين فهذا ليس بشرك إنما هذه وسائط بيننا وبين الله. نقول: هذا هو عين الشرك، لا يوجد بين من عبد الحجر ومَن عبد الميت، كلها عبادة لغير الله أليس كذلك؟ والشرك ما هو؟ هو عبادة غير الله.

فهذه هي القاعدة الثالثة من القواعد الأربع [1] التي ألفها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–، وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر على أناس متفرقين، أي أنه صلى الله عليه وسلم لمّا بعثه الله للدعوة إلى التوحيد والنذارة عن الشرك، وجد المشركين متفرقين في عباداتهم ومتنوعين في شركهم، فمنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الصالحين والأولياء، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم ولم يفرِّق بين من عبد ملَكا أو صالحا أو وليًا من الأولياء وبين من عبد الأشجار والأحجار والأصنام؛ لأن الكلّ عبادة لغير الله –عز وجل–، وكلهم مشركون، لا فرق بينهم في الحكم وإن تنوّعت معبوداتهم، فلا فرق بين مَن عبد وليًا أو صالحا أو عبد صنمًا كما يدَعي بعد المخدوعين الذين يقولون الشرك هو عبادة الأصنام فقط، عبادة الأصنام إنما هي نوع من أنواع الشرك الذي بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم بإنكاره وقتال أهله حتى يكون الدين كله لله، لم يُفرِّق بينهم، فدلّ على أن الشرك هو عبادة غير الله أيًّا كان هذا المعبود، سواء كان ملكا أو نبيا أو رجلا صالحا أو شجرا أو حجرا أو قبرًا أو غير ذلك.

فهذا فيه ردّ على هؤلاء الذين يقولون: إن الشرك عبادة الأصنام، ولا يسوَّى عندهم بين مَن عبد الأصنام وبين مَن عبد وليًّا أو رجلاً صالحًا، يُنكرون التسوية بين هؤلاء، ويزعمون أنّ الشرك مقصورٌ على عبادة الأصنام فقط، وهذا من المغالَطة الواضحة من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنّ الله –جلّ وعلا– في القرآن أنكر على الجميع، وأمر بقتال الجميع.

الناحية الثانية: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يفرِّق بين عابِدِ صنمٍ وعابِد ملَك أو رجلٍ صالح.

ثم ذكر الشيخ –رحمه الله– الأدلة من القرآن –لأنه لا يتكلم إلا عن دليل– ذكر الأدلة من القرآن التي تدلّ على هذه القاعدة وتدمغ هؤلاء المجادلين بالباطل الذين يريدون أن يخرجوا عبادة القبور

[1] أعاد الشيخ في الشريط الثالث من شرح القواعد الأربعة شرح القاعدة الثالثة ، فرأينا دمج الفوائد منها بالشرح السابق.

والأموات من الشرك ويجعلوا هذا النوع من الأنواع المشروعة عندهم، ولا يسمُّونه شركًا، وإنما يسمُّونه باب التوسُّل أو طلب الشفاعة، ويزعمون أن هذا أمرٌ مشروع ويشبِّهون على الناس بذلك.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٣٩].

والدليل على هذه القاعدة أن الله –جل وعلا– أمر بقتال المشركين عمومًا ولم يستثنِ منهم أحد، فقال –جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ الضمير يرجع إلى المشركين، ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ يعني المشركين، ولم يخص مشركًا دون مشرك، هذا عامّ لكل المشركين، لم يستثنِ أحدًا، ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ الضمير هذا عام لكل المشركين.

ثم قال: ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ لا تكون: لا يوجَد، والفتنة: الشرك، أي : لا يوجَد شرك، وهذا عامّ، أيّ شرك، سواءً الشرك بالأولياء وبالصالحين، أو بالأحجار، أو بالأشجار، أو بالشمس، أو بالقمر، أو بالشيطان، هناك ناس يعبدون الشيطان، وعبدة الشيطان معروفون من قديم، كما ذكرهم ابن القيم في إغاثة اللهفان. إذا أردتم أن تعرفوا أنواع المعبودات طالِعوا الجزء الثاني من "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان".

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ حتى يأمَن المؤمنون على عقائدهم أن يفتنهم هؤلاء المشركون، والفتنة هنا معناها الشرك، فإن المشركين لا يفتؤون يحاولون بالمؤمنين أن يشركوا بالله –عز وجل- ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[سورة البقرة، الآية ٨٩] المشركون يفتنون المؤمنين ويعذّبونهم تارة ويغرونهم بالطمع تارة أخرى من أجل أن يقبلوا هذا الشرك. الله –جل وعلا– أمر بقتالهم لإراحة المسلمين من فتنتهم وشرهم وتطاولهم على أهل العقيدة الصحيحة حتى يأمن الموحِّدون على عقيدتهم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ الدين معناه العبادة، تكون العبادة كلها لله، ولا يكون بعضها لله وبعضها لغيره، هذا هو المقصود من الجهاد في سبيل الله.

المقصود من الجهاد في سبيل الله:

إعلاء كلمة الله.

ونشر التوحيد في الأرض.

والقضاء على الشرك والمشركين، حتى تطهر الأرض من شركهم ووثنيتهم وتعود العبادة لمستحقها الذي خلق الخلق من أجلها وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ويكون الدين كله لله، ليس لأحد فيه اشتراك، لا الأصنام ولا الأشجار ولا الأحجار ولا الأولياء ولا الملائكة ولا الرسل ولا غيرهم كائنًا من كان. هذا هو المقصود و الحكمة من مشروعية الجهاد في سبيل الله –عز وجل–.

وفي هذا أيضًا ردٌّ على الذين ينكرون الجهاد الآن من بعض الكتَّاب الإسلاميين –كما يسمُّون أنفسهم– لأن اليهود والنصارى لّما قالوا للمسلمين: أنتم تطمعون في أراضي الناس تغتصبون تقاتلون الناس قالوا هؤلاء الكتَّاب –في زعمهم يردُّون على المستشرقين– قالوا: "لا، إنّ الإسلام لم يُشرَع القتال إلا من باب المدافعة، الإسلام لا يقاتِل إلا من قاتَل، من باب المدافعة"، وهذا باطل؛ لأن الله –جل وعلا– يقول هنا: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: من أجل المدافعة، وإنما المدافعة عندما يضعف المسلمون أو يُغزَون في بلادهم، فحينئذ تجب المدافعة، وهذا يسمى قتال الدفاع. أما إذا قوي المسلمون وصار لهم شوكة فإنه يجب عليهم أن يغزوا الكفار في بلادهم، وهذا يسمى جهاد الطلب، المسلمون يغزون الكفار ولا يجلسون في بلادهم ويقولون إن جاءونا قاتلناهم وإلا ما علينا تركناهم، هذا كلام باطل، يَنعِق به بعض الكتّاب العصريين الجهّال ويقولون إن القتال في الإسلام إنما شُرِع من أجل الدفاع فقط، لو كان كذلك لم يختص هذا، كلٌّ يدافع عن نفسه، الكفار يدافعون عن أنفسهم، البهائم تدافع عن نفسها، الدفاع هذا أمر معروف لكن المقصود بالجهاد هو: إعلاء كلمة الله –سبحانه وتعالى–، والقضاء على الشرك؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، هذا هو الهدف من الجهاد في سبيل الله، لأن الله خلق الخلق لعبادته، إذا أبى هؤلاء أن يعبدوا الله وحده فإنه يجب

قتالهم؛ لأنهم أعداء الله وأعداء لرسله وأعداء لدينه، فلا يجوز بقاؤهم على الأرض ينشرون الكفر والإلحاد والشرك بالله –عز وجل– والمسلمون فيهم قوة ومَنَعة يستطيعون قتالهم وغَزْوهم في بلادهم.

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة فصلت، الآية ٣٧](١).

---

(١)والدليل على أنّ هناك أناسًا يعبدون الشمس والقمر هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي من الأدلة الدالة على وحدانيته –سبحانه– واستحقاقه للعبادة، "الآية" معناها الدلالة والعلامة، أي من العلامات الدالة على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة: الشمس والقمر، هذان النَّيران العظيمان، فهما من آيات الله الكونية، لأن الآيات على قسمين:

آيات كونية، وهي المخلوقات.

وآيات قرآنية، من الوحي.

أما الآيات الكونية فهي كل المخلوقات آيات على قدرة الله، قال الشاعر:

ففي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحد

فكل المخلوقات آيات على قدرة الله ووحدانيته في الخلق ووحدانيته في العبادة، لأن أحدًا لم يخلق شيئًا من المخلوقات غير الله –سبحانه وتعالى–، فهو الخالق وهو الذي يستحق العبادة وحده.

ونصّ على الشمس والقمر لأن هناك من يعبد الشمس والقمر من الناس، ومن الناس من يعبد الكواكب والنجوم مثل قوم إبراهيم –عليه السلام–، جماعة النمرود الجبار، هؤلاء كانوا يصوّرون الهياكل على صور الكواكب ويعبدونها من دون الله –عز وجل–، ومنهم من يعبد الشمس والقمر لخصوصهما، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأن

المشركين يسجدون لها في ذلك الوقت، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتشبّهوا بهم، وهذا من سدّ وسائل الشرك، لأن التشبه يؤدي إلى مشاركة المتشبَّه به في أخلاقه وعبادته.

فنُهينا أنْ نصليَ في هذين الوقتين وإنْ كانت الصلاة لله و لم يخطر على باله يصلي أويتعلق بالقمر أو بالشمس وإنما يصلي لله، لكن لَمّا كان في هذا الفعل مشابَهَةً لفعل المشركين مُنِعَ من ذلك سدًّا للذريعة التي تُفضي إلى الشرك، لألا يأتي من بعد مَن يقول: هذا يصلي من أجل الشمس أو القمر، ثم يذهب ويعبد الشمس والقمر. الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالنهي عن الشرك وسدّ ذرائعه المفضية إليه.

يقول لك أنا أصلي لله عند طلوع الشمس وعند غروبها، نقول: نعم وإن كنت تصلي لله فلا تصلي في هذا الوقت لأن هذا فيه مشابهة للمشركين ونحن نُهينا عن التشبُّه بالمشركين.

﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشمس والقمر مخلوقات مدبرات ليس لهما من الأمر شيء وإنما الأمر كله لله –سبحانه وتعالى–، الخالق هو المستحق للعبادة، أما المخلوق فإنه لا يستحق شيئا من العبادة كائنا من كان.

الشاهد من الآية: أنها دلّت على أن هناك من المشركين من يعبد الشمس والقمر ويسجد لهما.

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ الآية [سورة آل عمران، الآية ٨٠].

الدليل على أن هناك من يعبد الملائكة هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذه الآية في سياق الإنكار على النصارى الذين يعبدون المسيح –عليه الصلاة والسلام–.

الآية التي قبلها ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هذا فيه ردٌّ على عبّاد المسيح، ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الذي درس الكتاب ما يمكن أن يأمر الناس بعبادة غير الله –عز وجل–، وعيسى –عليه الصلاة والسلام– رسول من رسل الله، ولا يليق بالرسول أن يأمر الناس بالشرك؛ لأن الرسل بُعِثوا بالنهي عن الشرك؛ ففي هذا ردٌّ على النصارى الذين يعبدون المسيح، لأن المسيح رسول والرسول لا يمكن أن يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، لأنّ الله بعثه لإنكار ذلك ومحاربة أهله، فكيف يدّعيه لنفسه؟! هذا فيه ردٌّ على هؤلاء.

الشاهد من الآية: أن هناك من يعبد الملائكة.

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ هذا تعميمٌ بعد تفصيل.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ ﴾ دلّ على أنّ مَنْ عَبد الملائكة والنبيّين أنه كافر.

وعبّاد القبور يقولون: لا، الذي يعبد الملائكة والنبيّين والصالحين ليس بكافر، ذلك الذي يعبد الأصنام والأشجار والأحجار، نقول: من أين جئتم بهذا؟ ليس في كتاب الله التفريق بين من عبد الصالحين أو الملائكة أو الأنبياء أو الأشجار والأحجار، لا يوجد تفريق في كتاب الله.

في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ في يوم القيامة يقول الله للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ يعني الذين كانوا في الدنيا يعبدون الملائكة، الله –جل وعلا– يريد أن يبيّن بطلان عبادة الملائكة، فيسأل الملائكة، فالملائكة يتزّهون الله عن ذلك ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، يعني تنزيه لله –سبحانه وتعالى– ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾ يعني الشياطين؛ لأن الشياطين هم الذين أمروهم بعبادة غير الله، فتكون عبادتهم للجن لا للملائكة، لأن الملائكة تُنكر الشرك فكيف تأمر به؟

الشاهد من الآية: أنه يوجد من الخلق من يعبد الملائكة.

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ الآية [سورة المائدة، الآية١١٦].

دليل أن هناك من يعبد الانبياء: أن النصارى عبدوا المسيح ابن مريم وقالوا إنه الله أو هو ابن الله أو ثالث ثلاثة –تعالى الله عما يقولون– ويعبدونه، ولا يزالون على هذه العقيدة الباطلة.

ومَن سمع أو استمع إلى إذاعاتهم الآن التي يبثُّونها أو قرأ شيئا من كتبهم تبيّن له ذلك واضحًا؛ أنهم يعبدون المسيح ويسمّونه الرب، تعالى الله عما يقولون.

في يوم القيامة يُبطِل الله –جل وعلا– عبادتهم فيسأل –وهو أعلم سبحانه وتعالى– لكن هذا من باب بيان بطلان عبادة المسيح ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ نزَّه الله عن هذه المقالة ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ﴾ لأنّ العبادة حق لله –سبحانه وتعالى– ليست حقًا لأحد، ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ﴾ ردّ هذا إلى علم لله –جل وعلا–، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ﴾، فهو –سبحانه وتعالى– عالِم بكل شيء، ولو كان المسيح قد قال ذلك لعلمه الله –جل وعلا–؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء، القول الظاهر أو ما في النفس وفي القلب وفي الضمير، قبل أن يتلفظ به الإنسان الله يعلمه –جل وعلا–.

ثم بيّن –عليه الصلاة والسلم– ما أمرهم ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾أي أرسلتني به إليهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ هذا هو الذي جاء به المسيح –عليه الصلاة والسلام–، فإخوان هالنبيين كلهم جاءوا بهذا؛ يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له.

الشاهد من الآية: أن فيها بيان أنّ هناك من عَبَدَ الأنبياء، ومع هذا سمّاهم الله مشركين، يتخذون إلهين من دون الله، من دون الله يعني من غير الله، فدلّ على أن عبادة الأنبياء اتخاذ إله مع الله –سبحانه

وتعالى–، وان الأنبياء لم يأمروا بذلك، إنما أمروا بخلافه؛ وهو التوحيد وإنكار الشرك، من أولهم إلى آخرهم.

والآن يوجد من يستغيث بالرسول صلى الله عليه وسلم بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم يستغيثوا به ويدعوه من دون الله، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث بالأمر بالتوحيد وإنكار الشرك ومحاربة أهله ومقاتلة أهله، يوجد الآن من يشرك بالله –عز وجل– بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به والاستمداد به، خصوصا في أياتم الموالد في قصائدهم وفي مناجاتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ويستنصرون به، فهم على عكس ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن النصارى على عكس ما جاء به المسيح –عليه السلام–.

وعبادة المسيح وعبادة الصليب والوثنيات التي في دين النصارى أصلها أن يهوديا يقال له "بولس" يهودي معارض مبغِض للمسيح –عليه السلام– ولدين المسيح، لكنه الخبيث انقلب بسرعة وأعلن أنه تاب إلى الله وأنه صار من أتباع المسيح وأدخل في دين النصارى هذه الوثنيات فقبلوها، عبادة المسيح وأمّه، والقول بأن الله ثالث ثلاثة، وعبادة الصليب، هذه كلها أحدثها بولس في دين النصارى، أما المسيح –عليه السلام– فهو كغيره من إخوانه النبيين، أَمَرَ بعبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا يوم القيامة يقول الله أمام الخلائق للمسيح ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ﴾ [سورة المائدة، الآية ١٠٩] إلى أن قال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ هذا تنزيل لله –عز وجل– ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ العبادة ليست حق للمخلوق وإنما هي حق للخالق ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تبرأ المسيح –عليه السلام ممن عبده، وكذَّبهم في قولهم أنّ هذا من دين المسيح، والذي أدخل

هذا في دين المسيح هو اليهودي الخبيث بولس، ومن ثم شارل، فهو الذي أفسد دين المسيح وأدخل فيه الوثنية، والمسيح بريء منها، وليس هذا هو دين المسيح.

والذين يقولون الآن إنهم مسيحيون كَذَبَةٌ، ليسوا مسيحيين، هؤلاء نصارى، يقال لهم النصارى، أما تسميهم بالمسيحيين أو تسمي اليهود بالإسرائيليين، هذه كلها تسمية باطلة. فاليهود يسمَّمون اليهود؛ لأن إسرائيل هو نبي الله يعقوب –عليه السلام–، والمسيحيون هم أتباع المسيح على التوحيد وعلى العقيدة، أما هؤلاء مشركون، ما يقال لهم مسيحيون، يقال لهم النصارى، كما سماهم الله –سبحانه وتعالى–[1].

[1] انتهى هنا دمج الشرح الأول مع الشرح المعاد للقاعدة الثالثة.

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الآية [سورة الإسراء، الآية ٥٧].

(ودليل الصالحين) يعني ودليل أنّ هناك مَن عبد الصالحين من البشر: قوله –تعالى– : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قيل: نزلت هذه الآية فيمن يعبد المسيح وأمّه وعُزيرًا، فأخبر –سبحانه– أنّ هؤلاء المسيح، وأمه مريم، وعُزيرًا ، أنهم كلهم عبادٌ لله، يتقرّبون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم عبادٌ محتاجون إلى الله مفتقرون إليه يدعونه ويتوسّلون إليه بالطّاعة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: القُرب منه –سبحانه– بطاعته وعبادته، فدلّ على أنهم لا يصلُحون للعبادة؛ لأنّهم بشرٌ محتاجون فقراء، يدعون الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، ومَن كان كذلك لا يصلُح أن يُعبَد مع الله –عز وجل–.

والقول الثاني: أنها نزلت في أُناسٍ من المشركين كانوا يعبدون نفَرًا من الجن، فأسلم الجن و لم يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم بإسلامهم، أسلم الجن المعبودون وصاروا يتقرّبون إلى الله بالطاعة والضَّراعة ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم عبادٌ محتاجون فقراء لا يصلُحون للعبادة.

وأيـــًّا كان المراد بالآية الكريمة فإنّها تدلّ على أنه لا يجوز عبادة الصالحين، سواءً كانوا من الأنبياء والصدِّيقين– لأن مريم صدِّيقة كما قال الله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[سورة المائدة، الآية ٣٥]فمريم صدِّيقة– فلا يجوز عبادة الأنبياء والصدِّيقين، وعلى التفسير الثاني الصالحين لا تجوز عبادة الصاحلين، لأنّ الكُل عبادٌ لله فقراء إليه، فكيف يُعبدون مع الله –جلّ وعلا–؟

والوسيلة معناها: الطاعة والقُرب، الوسيلة في اللغة: الشيء الذي يوصِّل إلى المقصود. فالذي يوصِّل إلى رضى الله وجنّته ما هو؟ هو الطاعة، الوسيلة هي طاعة الله –سبحانه وتعالى– وعبادته، سُمِّيتْ وسيلة

لأنها تقرّب إلى الله –جل وعلا– وتوصِّل إلى جنته، فهي وسيلة وسبب، سبب للوصول إلى الله وإلى جنته –سبحانه وتعالى–. هذه هي الوسيلة في اللغة وفي الشرع.

أما المحرِّفون المخرِّفون فيقولون: الوسيلة: أنْ تجعل بينك وبين الله واسطة من الأولياء والصالحين والأموات، تجعلهم واسطة بينك وبين الله ليقرِّبوك إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[سورة الزمر، الآية ٣].

هذا معنى الوسيلة عند هؤلاء المخرّفين: أن تجعل بينك وبين الله واسطة تُعرِّف الله بك وتَنقُل له حاجاتك وتُخبِره عنك، كأنّ الله –جلّ وعلا– لا يعلم، أو كأن الله –جلّ وعلا– بخيل لا يعطي إلاّ بعد ما يُلَحّ عليه بالوسائط –تعالى الله عمّا يقولون–، هذه هي الوسيلة في نظر هؤلاء، ولهذا يشبّهون على النّاس ويقولون: الله –جلّ وعلا– يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ فدلّ على أنّ اتّخاذ الوسائط من الخلق إلى الله أمرٌ مشروع لأنّ الله أثنى على أهله، وفي الآية الأخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾[سورة مائدة، الآية ٣٥]، قالوا: إن الله أمرنا أن نتّخذ الوسيلة إلى الله، والوسيلة معناها: الواسطة، هكذا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه.

الوسيلة في القرآن وفي السنة هي: الطاعة التي تقرِّب إلى الله، والعبادة والتوحيد، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته –سبحانه وتعالى–، **هذه هي الوسيلة المشروعة**.

أما التوسُّل بالمخلوقين فهو وسيلةٌ ممنوعة، وسيلة شركيّة، وهي التي اتّخذها المشركون من قبل ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[سورة يونس، الآية ١٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[سورة الزمر، الآية ٣]، هذا هو شرك الأوّلين والآخرين سواء بسواء، وإنْ سمَّوه وسيلة فهو الشرك بعينه، وليس هو الوسيلة التي شرعها الله –سبحانه وتعالى–، لأنّ الله لم يجعل الشرك وسيلة إليه، أبدًا، وإنما الشرك مُبْعِدٌ عن الله –

سبحانه وتعالى–: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾[سورة المائدة، الآية ٧٢]، فكيف يُجعل الشرك وسيلة إلى الله –تعالى الله عمّا يقولون –.

الشّاهد من الآية: أنّ فيها دليلًا على أنّ هناك من المشركين مَن يعبد الصالحين، لأنّ الله بيّن ذلك، وبيّن أن هؤلاء الذين تعبدونهم هم عبادٌ فقراء ﴿ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ يعني يتقرّبون إليه بالطّاعة ﴿ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ يتسابقون إلى الله –جلّ وعلا– بالعبادة لفقرهم إلى الله وحاجتهم ﴿ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ ومَن كان كذلك فإنّه لا يَصلُح أنْ يكون إلهًا يُدعى ويُعبَد مع الله –عزّ وجل–.

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [سورة النجم، الآية ١٩–٢٠].

في هذه الآية دليل أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار من المشركين.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: أخبروني، من باب استفهام الإنكار والتوبيخ.

﴿ٱللَّٰتَ﴾ –بتخفيف التاء–: اسمُ صنمٍ في الطائف، وهو عبارة عن صخرة منقوشة، عليها بيتٌ مبني، وعليه ستائر، يضاهي الكعبة، وحوله ساحة، وعنده سَدَنَة، كانوا يعبدونها من دون الله –عزّ وجل–، وهي لثقيف وما والاهم من القبائل، يفاخِرون بها.

وقُرئ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتّ﴾ –بتشديد التاء– اسم فاعل من (لَتَّ يَلُتُّ)، وهو رجلٌ صالح كان يلُتُّ السَّويق ويُطعمه للحُجّاج، فلمّا مات بنَوا على قبره بيتـــًا، وأرْخوا عليه الستائر، وصاروا يعبدونه من دون الله –عزّ وجل–. هذا هو اللّات .

والعزّى: شجرات من السَّلَم في وادي نخلة بين مكّة والطائف، حَوْلَها بناء وستائر، وعندها سَدَنة، وفيها جن؛ شياطين يكلّمون الناس، ويظنّ الجهّال أنّ هذا الذي يكلّمهم هو نفس هذه الشجرات أو هذا البيت الذي بنَوه، مع أنّ الذي تكلِّمهم هي الشياطين لتضلّهم عن سبيل الله، وكان هذا الصنم لقريش وأهل مكّة ومَن حولهم.

ومناة: صخرة كبيرة في مكان يقع قريبـــًا من جبل قُديد، بين مكّة والمدينة، قريبة من المدينة، وكانتْ لخُزاعة والأوس والخزْرج، وكانوا يُحرِمون من عندها بالحج، ويعبدونها من دون الله.

فهذه الأصنام الثلاثة هي أكبر أصنام العرب.

قال الله –تعالى– : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾[النجم:١٩] هل أغنتكم شيئـــاً ؟ هل نفعتكم؟ هل نصرتكم؟ هل كانت تخلق وترزق وتحيي وتميت؟ ماذا وجدتم فيها؟ هذا من باب الإنكار وتنبيه العقول إلى أنْ ترجع إلى رشدها، فهذه إنما هي صخرات وشجرات ليس فيها نفع ولا ضر، مخلوقة.

فلمّا جاء الله بالإسلام وفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكّة المشرّفة أرسل المغيرة بن شُعبة وأبا سفيان بن حرْب إلى (اللاّت) في الطائف فهدماها بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأرسل خالد بن الوليد إلى العزّى فهدمها وقطع الأشجار وقتل الجنيّة التي كانت فيها تخاطِب الناس وتضلّهم ومحاها عن آخرها –والحمد لله–. وأرسل عليّ بن أبي طالب إلى (مَناة) فهدمها ومحاها، وما أنقذت نفسها، فكيف تُنقذ أهلها وعُبّادها؟! ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[سورة النجم، الآية ١٩-٢٠] أين ذهبت؟ هل نفعتكم؟ هل منعتْ نفسها؟ أين ذهبت هذه التي تعبدونها من دون الله –عز وجل–؟

فهذا فيه دليل على أنّ هناك مَن يعبد الأشجار والأحجار، بل إنّ هذه الأصنام الثلاثة كانت هي أكبر أصنامهم ومع هذا محاها الله من الوُجود، وما دفعت عن نفسها ولا نفعت أهلها، فقد غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلهم و لم تمنعهم أصنامهم، فهذا فيه ما استدلّ له الشيخ –رحمه الله– أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار.

يا سبحان الله! بشر عقلاء يعبدون الأشجار والأحجار الجامدة التي ليس فيها عقول وليس فيها حركة ولا حياة، أين عقول البشر؟ تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ[1].

عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه –وكان ممّن أسلم عام الفتح سنة ثمانٍ من الهجرة– قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –)، عندما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدم الأصنام –كما سبق– علمتْ هوازن بذلك وأن قريشًا قد سقطت شوكتها، فخافت هوازن على نفسها أن يصل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحركوا يريدون غزو الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمّا علِم رسول الله صلى الله عليه وسلم جهّز جيوشًا من مكة وفيهم ممن أسلموا حديثًا، مثل أبي واقد –رضي الله عنه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبادر إلى العدو، ولم يتأخر عليه الصلاة والسلام، بل بادرهم بالغزو قبل أن يغزوه، خرج إليهم بجيش جرّار، فلمّا كانوا في الطريق مرّوا على أناسٍ من المشركين، عاكفين عند سدرة، شجرة معروفة، يعلّقون فيها أسلحتهم للتبرُّك، يقال لها ذات أنواط، والأنواط جمع نَوط وهو: التعليق، أي: ذاتُ تعاليق، يعلِّقون بها أسلحتهم للتبرّك بها. فقال بعضُ الصحابة الذين أسلموا قريبـــًا ولمْ يعرفوا التوحيد تمامـــًا ، طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختار لهم شجرة يعكفون عندها ويعلّقون عليها أسلحتهم، فقالوا: (اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط)، وهذه بليّة التقليد والتشبُّه، بليّة التقليد والتشبُّه هي من أعظم البلايا مع الجهل (اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط) فعند ذلك تعجّب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ((الله أكبر!، الله أكبر!، الله أكبر!))، من باب

---

[1]) الترمذي، كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم. وأحمد (٢١٨١٥). صححه الألباني في صحيح الجامع.

التعجب والإنكار. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيئًا أو استنكر شيئـــًا فإنّه يكبِّر أو يقول: ((سبحان الله)) ويكرِّر ذلك.

((إنها السُّنَن)) أي: الطُرُق التي يسلُكها الناس ويَقتدي بعضهم ببعض، فالسبب الذي حملكم على هذا هو اتّباع سنن الأوّلين والتشبُّه بالمشركين .

((قلتم –والذي نفسي بيده–كمـــا قـــالت بنوا إســـرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية ١٣٨] .

موسى –عليه السلام– لّما تجاوز البحر ببني إسرائيل وأغرق الله عدوّهم فيه وهم ينظرون، لّما جاوزوا البحر مرّوا على أُناسٍ يعكُفون على أصنامٍ لهم من المشركين، فقال هؤلاء لموسى –عليه السلام–: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ تشبّه ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أنكر عليهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾[الأعراف: ١٣٩]أي: باطل، متبّر يعني: تالِف وهالِك، ﴿ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٩]؛ يعني شرك، ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]، أنكر عليهم –عليه الصلاة والسلام– كما أنّ نبيّنا محمدًا صلى الله عليه وسلم أنكر على هؤلاء، ولكن هؤلاء لم يشركوا، بنوا إسرائيل لَمّا قالوا هذه المقالة لم يُشركوا؛ لأنّهم لم يفعلوا، لم ينفّذوا هذا الطلب، ولو نفَّذوه لأشركوا، وكذلك هؤلاء الصحابة لو اتّخذوا ذات أنواط لأشركوا، ولكنّ الله حماهم، لَمّا نهاهم نبيّهم انتهَوا، وقالوا هذه المقالة عن جهل، ما قالوها عن تعمُّد، فلمّا علِموا أنها شرك انتهَوا و لم ينفِّذوا، ولو نفّذوا لأشركوا بالله –عز وجل–.

فالشّاهد من الآية: أنّ هناك مَن يعبد الأشجار، لأنّ هؤلاء المشركين اتّخذوا ذات أنواط، وحاول هؤلاء الصحابة الذين لم يتمكّن العلم من قلوبهم حاولوا أن يتشبّهوا بهم لولا أنّ الله حماهم برسوله صلى الله عليه وسلم.

الشاهد: أنّ هناك مَن يتبرّك بالأشجار ويعكُف عندها.

والعكوف: معناه البقاء عندها مدّة تقرُّبـــًا إليها. ومنها الاعتكاف في المسجد إذا نوى التقرُّب إلى الله في المسجد. فالعُكوف هو: البقاء في المكان.

فدلّ هذا الحديث على مسائل عظيمة :

المسألة الأولى: خطر الجهل بالتوحيد، فإنْ مَنْ كان يجهلُ التوحيد حَرِيٌّ أنْ يقع في الشرك وهو لا يدري، ومن هنا يجب تعلُّم التوحيد، وتعلُّم ما يضادّه من الشرك حتى يكون الإنسان على بصيرة لئلا يُؤتى مِن جَهْله، لا سيّما إذا رأى من يفعل ذلك فيحسبُه حقـــًّا بسبب جهله، ففيه: خطرُ الجهل، لا سيّما في أمور العقيدة.

ثانيـــًا: في الحديث خطرُ التشبُّه بالمشركين، وأنّه قد يؤدِّي إلى الشرك، قال صلى الله عليه وسلم: ((مَن تشبّه بقومٍ فهو منهم))[1]، فلا يجوز التشبُّه بالمشركين.

المسألة الثالثة: أنّ التبرُّك بالأشجار والأحجار والأبنية أنه شركٌ وإنْ سُمِّي بغير اسمه. طلب البركة من غير الله من الأشجار والأحجار والقُبور والأضرحة، هذا شرك وإنْ سمّوه بغير اسم الشرك.

هؤلاء سمَّوها ذات أنواط ما سمَّوه شرك، والنبي صلى الله عليه وسلم قال إنه هو الشرك ((قلتم – والذي نفسي بيده–كمـــا قـــالت بنوا إســـرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾)) فهم يسمُّونها ذات أنواط وهي في الحقيقة صنم يُعبَد من دون الله، فالعبرة بالحقائق لا بتغيير الأسماء.

---

[1]) أبو داود، كتاب اللباس، باب: في لبس الشهرة. صححه الألباني في صحيح الجامع.

الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانَنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٦٥].

وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

القاعدة الرابعة –وهي الأخيرة–: أنّ مشركي زماننا أعظمُ شركـــًا من الأوّلين الذين بُعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والسبب في ذلك واضح: أنّ الله –جلّ وعلا– أخبر أن المشركين الأولين يُخلصون لله إذا اشتدّ بهم الأمر، فلا يدعون غير الله –عز وجل–لعلمهم أنّه لا يُنقِذ من الشدائد إلاّ الله؛ كما قال –تعالى–: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[سورة الإسراء، الآية ٦٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[سورة لقمان، الآية ٣٢]، يعني: مخلصين له الدعاء، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[سورة العنكبوت، الآية ٦٥]، فالأوّلون يُشركون في الرخاء، يدعون الأصنام والأحجار والأشجار، جميع الأنواع التي سمعتم، أما إذا وقعوا في الشدّة وأشرفوا على الهلاك فإنهم لا يدعون صنمـــًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا أيّ مخلوق، وإنما يدعون الله وحده –سبحانه وتعالى–، فإذا كان لا يخلِّص من الشدائد إلاّ الله –جلّ وعلا– فكيف يُدعى غيرُه في الرخاء؟!

ولهذا يروى أن عكرمة بن أبي جهل لمّا فتح النبي صلى الله عليه وسلم هرب، وكان مشركًا فهرب، وركب في سفينة يهرب من مكة، فلمّا كانوا في البحر جاءهم الموج وأشرفوا على الهلاك قالوا:

أخلِصوا، لا تدعوا إلا الله لأنه لا ينجّي إلا الله، فال: أنا ما هربتُ إلا من هذا، ما هربتُ إلا من الإخلاص ،محمد صلى الله عليه وسلم إنما دعانا للإخلاص إخلاص الدعاء لله، فإذا كان لا ينجّي من الشدائد إلا الله. فإنه لا يُدعى إلا الله –عز وجل–، ثم رجع وأعلن إسلامه وبايع النبي صلى الله عليه وسلم، وصار من أفاضل الصحابة، ومن قوّاد الجهاد في سبيل الله، واستُشهِد –رضي الله عنه– في موقعة اليرموك. فهذا الرجل العاقل تنبّه، أما هؤلاء فإنهم لا يتنبّهون.

أما مشركو هذا الزمان يعني المتأخّرين الذين حدث فيهم الشرك من هذه الأمّة المحمديّة فإنّ شركهم دائمٌ في الرخاء والشدّة، لا يُخلصون لله ولا في حالة الشدّة، بل كلما اشتدّ بهم الأمر اشتدّ شركهم، ونداؤهم للحسن والحسين وعبد القادر والرِّفاعي وغير ذلك، هذا شيء معروف، ويُذكر عنهم العجائب في البحار، أنهم إذا اشتدّ بهم الأمر صاروا يهتفون بأسماء الأولياء والصالحين ويستغيثون بهم من دون الله –عزّ وجل–، لأنّ دعاة الباطل والضلال يقولون لهم: نحن ننقذكم من البِحار، فإذا أصابكم شيء اهتفوا بأسمائنا ونحنُ ننقذكم، كما يُروى هذا عن مشايخ الطُّرق الصوفية، واقرؤوا –إنْ شئتم–((طبقات الأولياء للشعراني)) ففيها ما تقشعرّ منه الجلود ممّا يسمّيه كرامات الأولياء، وأنهم ينقذون من البحار، وأنه يمدّ يده إلى البحر ويحمل المركَب كله ويُخرجه إلى البر ولا تَتَنَدَّى أكمامه من البحر، إلى غير ذلك من تُرَّهَاتهم وخُرافاتهم، فشركهم دائم في الرخاء والشدّة، فهم أغلظ من المشركين الأوّلين.

وأيضـــاً –كما قال الشيخ في ((كشف الشبهات)) من وجه آخر أيضًا شركهم أغلظ وهو: أنّ الأوّلين يعبدون أُناســاً صالحين من الملائكة والأنبياء والأولياء، أما هؤلاء فيعبدون أُناســاً من أفجر الناس، وهم يعترفون بذلك، فالذين يسمّونهم الأقطاب والأوتاد والأغواث هؤلاء لا يصلّون ولا يصومون ولا يتزهّون عن الزنا واللواط والفاحشة، لزعمهم أنهم ليس عليهم تكاليف وأنهم أولياء، وأنهم سقطت عنهم التكاليف فليس عليهم حرام ولا حلال، إنما هذا للعوام فقط، وهم يعترفون بهذا، أنّ سادتهم لا يصلّون ولا يصومون وأنهم لا يتورّعون عن فاحشة، ومع هذا يعبدونهم، يعبدون أُناســاً من

أفجر الناس، كالحلاّج، وابن عربي، والرّفاعي، والبدوي وغيرهم، هم يعترفون بهذا أن هؤلاء من أفسق الخلق وأنهم خارجون من الدِّين لا يصلون ولا يصومون ولا يعتبرون العبادات شيئا وإنما هي للعوام ،ومع هذا يعبدونهم، فهم أغلظ من الأولين شركًا –والعياذ بالله–.

والدليل على أنّ المشركين المتأخّرين أعظم وأغلظُ شركـــًا من الأوّلين، أنّ الأوّلين يُخلصون في الشدّة ويُشركون في الرخاء، الدليل هذه الآية: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، عندما يضطرب بهم البحر ويدعونه يجيب دعوتهم ولو كانوا مشركين ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [سورة النمل: ٦٢]، هذا من كرمه –سبحانه– وفضله وجوده؛ أنه يجيب دعوة المضطر ولو كان مشركًا. أما هؤلاء كما ذكر الشيخ شركهم دائم في الرخاء وفي الشدة، بل في الشدة أعظم، وكل من سافر معهم يذكر ما يقع منهم في حالة اضطراب البحر، ويذكر أصواتهم في حالة الاستغاثة بالأولياء والصالحين.

الحمد لله انتهت القواعد الأربع. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

*****